

الفكر المتراجع والرغبة القسرية بالتدمير الذاتى فى داخل الجناح الإحجامى للمدرسة العربية فى التحليل النفسى

د. على زيعور

١ - مصطفى صفوان ، اقتدينا به وأحببناه ، الجانب الإيجابى فى التجربة :

أنا، لقد أعربت عن رغبتى بأن أنجح ، نجاحاً ناله مصطفى صفوان، فى «ذكريات الفكر الجامعى العربى». وأشاد برغبتى هذه الزميل محمد عبدالرحمن مرحباً فى مقدمته لكتابى «ميادين العقل العملى فى الفلسفة الإسلامية الموسعة» (ص٧). ولا أظن أن حارثاً ، فى المدرسة العربية فى علم النفس، لم يتنبه إلى نجاحات حفنة من الزملاء العرب العاملين فى «الدار العالمية للعلم والفكر»^(١)؛ فالتغلب على مشاعر الحساسية، فيما بين أصحاب الكار أو الاختصاص الواحد، يسعد بإنجازات منيعة حققها مصطفى ومustafa (صفوان ثم زيور) ، المليجى، أ. فائق، القوصى؛ وغيرهم من الذين قد يصح تسميتهم : جماعة " ذى الوطنين أو الثقافتين ، الفكرتين أو العقلين " .

٢ - الأب المقتول ، المعاناة أو الخوف المكبوت من الصراعات التى يثيرها قتله:

وأنا، لقد تأخرت كثيراً عن "إخراج المكبوت" من أحكامى على تشخيصات مصطفى صفوان، وحلوله لانجراحات الوعى والسلوك فى النحن العربية؛ بل ولمساره وسيرورته فى التحليل النفسى؛ وللتعين (التماهى) فى لاكان ، أو فى الفكر الفرنسى المتأخر أكثر من خمسين عاماً قبل أن يأخذ بالتعمشق على التحليل النفسى.. فى كلام أقصر، أنا، بلا أسف أو تأنيب ذاتى، تأخرت ، كثيراً، قبل أن أفجر مكبوتاتى - المتراوحة رزيحه فوق رزيحة - تجاه تحليلات ثم معالجات صفوان

للصراعى والإشكالى فى نطاق "الذات العربية"، أو لإعادة صياغة الحلول الشمولانية المتناقحة (را : إعادة التعضية) للحناوية العربية المتمازقة، حتى للتحليل النفسى فى قوامه النظرى المحض. إن قتل مصطفى صفوان، الأب الرمزي فى مدرستنا العربية للتحليل النفسى والعلاج نفس ، يستولد مشاعر بالإثم من جهة أولى. وهو، من جهة أخرى ، يحرر ؛ ومن ثم يُهَيء للتطوير، أو الانزياح عن السلوكيات الإحجامية المتردية: الفائر منها والترجعى إن لم نُقل السلبى. لماذا نتمرد، هنا وفيما يلى، على الأب، على المعلم ، على الحال العُصابى أو المنجرح وغير السوائى عند "الرئيس" صفوان؟ ماذا يتشخص ، ثم كيف نحاكم، صفوان ممثل التيار التراجعى للعلاج بحسب التحليل النفسى عند العرب؟

٣ - وَعَيْنَةُ الْعَوَامِل الْقَهْرِيَّةِ فِي قَتْلِنَا الرَّمْزِي لِلأَب التَّمَرْدِ عَلَى الْمَوْسَسِ تَحْرِمُهُ وَحْيَاةُ أُخْرَى لَهُ :

هل هنا ، فى ظاهرة وأدوات تشخيص "الترعة التدميرية" اللاواعية، عند صفوان، أعراض عقدة "حسد الأخ الأكبر"؟ (. . .) ولا أظن أننا أمام عقدة "قتل المعلم" المرفوض معاً والمحبوب، الجاذب والجاذب. يضاف هنا أن صفوان يُمثل ويحين فى مدرستنا العربية الراهنة صورة منمقة، بل غير نقدية ، عن بعض أوربا المدللة العاشقة لنفسها. وبذلك فصفوان ليس هو فقط الأخ المحسود، أو المعلم المكروه ؛ بل وهو أيضاً (الغرب) (!) الذى هو داء ودواء، خصم وداعم ، ولا بدى وجلاد، إيجابى وسلبى، قاض وشاهد.

لا أقاضيه حباً بدور القاضى، أو السادى؛ فلست مصاباً بعقدة الضفدعة (عصاب التّق والتّيق). أو عقدة الأرملة الساخطة (السخط القهرى التعميمى). واعترفت مراراً بأنى وضعت أمام الوعى قهريات أخرى قد تتحكّم بى كناقذ أو محاكم؛ من نحو: عقدة حسد المعلم ، تنافر أبناء الكار الواحد، التلميذانية، عقدة الضحية الرغبة بالتمرد الأب الناجح أو الرئيس المتسلط القامع. لا شىء، إذن ، خارجاً عن السيطرة، عن الوعى والإرادة المسئولة ، وهكذا فإن قتل تفكرات صفوان

مرغوب هو إذن؛ ويؤجج في الآن عينه شعوراً بالأسى والندامة، ورغبة بالتكفير وغسل الشعور بالآثام. وفي كلام آدمث . إن النقدانية التي تتعلم وتتجاوز، أو تمتص وتهضم ثم تتخطى ، تكون لابتدية من أجل تقدم إعادة تعضية قطاع الفكر التحليل نفسى فى بعديه النظرى والتطبيقى، المحلى والعالمى، منهجه الاستقصائى، بالتداعيات الحرة ومنهجه العلاجى .

وتطبيق أدوات التفحص والتحليل على صفوان يقود إلى تشخيص نزعة تدميرية، وانجراح هاجع ، وذكرى إحباطٍ واكتئابٍ أو شعورٍ بالإنهاك. هذا، مع الرغبة بالانتقام أو التشفى .

٤ - النزعة القسرية إلى التدمير الذاتى عند صفوان والتيار التراجعى ؛

هنا " رغبة " من نوع عقاب الذات تؤدى بالصابر إلى أن يعتمد الوسائل المباشرة وغير المباشرة، وعلى الصعيدين الواعى واللاواعى، من أجل تهديم ذاته أو تحطيم انتماءاته إلى الذاكرة والوطن النحناوية. يُعيد التحليل النفسى هذه النزعة إلى غريزة العدوان. فهذه بقدر ما يصعب أمامها التوجه إلى الخارج ترتد إلى الفرد نفسه، وإذا هى تعجز عن تدمير العقبات الموضوعية والتغلب على الموانع المادية فإنها تتوجه نحو الداخل، وتعمل على تدمير الأثنا، أو النحن، فكراً وماضياً ومستقبلاً، إنها حالة الطفل، أو اليأس المشتبك مع حقله والفاقد للتكيف، فالصابر هنا بدلاً من أن يحطم المثير يحطم الذات؛ وهنا عوضاً عن أن نحطم العدو القوى نعص يدنا ، أو نضرب وجهنا والحال حال الذئب يعص الحديد حتى يكسر أنيابه .

وقد تكون النزعة فى بعض الفكر العربى المعاصر، إلى النعى اللجوج، والسخط المعمم والتقريع الذاتى، تعبيراً عن رغبة قهرية بتدمير الذات أو قتل صورة عنها شديدة السلبية والبشاعة .

أما " التراجع الفكرى " ، على صعيد الشخصية الفردية كما النظريات التنويرية، فهو ظاهرة نلحظها فى محاكمة الفكر أو مراحل التطور الحضارى. فأنا أرى أن

محمد عبده ، على سبيل المثال، كان تراجعاً عن الموجة الفكرية التى أحدثها الأفغانى؛ وأن رشيد رضا مثل الظاهرة عينها نسبة إلى محمد عبده نفسه.. وأن صفوان، بحسب ما عاينت ثم استتجت، هو الخطوة المتردية المتعثرة والإحجامية على سلم خطاب التحليل النفسى، وفى سيرورة الاستراتيجية العربية للتكيف والإسهام فى وسط الدار العالمية للتكنولوجيا والفلسفة وثورات العلم.

٥ - اتفاق مع صفوان حول تشخيص الانجرافات النرجسية فى النّحن، وليس حول طرح العلاج :

لا أشك فى صحة تشخيصات صفوان للأوضاع غير الصلبة فى الوطن العربى (أمية ، تخلف ، سياسة ، عصبية ..) بيد أنى اختلف معه حول التفسير، ومن ثم حول الاستراتيجى والفلسفة أو التكييفانية والتغيرانية: أنا اختلف معه حول الحدة . وأرفض السادية والتعميم، والجموح (را:القاضى الجامح) ونكران الواقع والتشفى.. بحسب تفسيراتى ، إن النّحناوية العربية تتعرض للكثير من التأثيم والتقطيع، وعمل القضاة، غير الاختصاصيين، فى محاكمتهم للفكر العربى والشخصية، يخرج عن الرفق والتعاطف عن المحبة والواقعية. فى رأى وعندياتى، إن الأنا الأعلى فى النّحن العربى لا ترى نفسها مسموعة الواعز أو نافذة القرارة. فالواجبات والمثل العالية ، كما نداءات التاريخ والعقل المستقبلى، ليست محترمة. ونرى العرب فى الواقع لاهين عن ذلك سادرين فى الرغبات غير اللائقة والجرى وراء الغريزى والتزوى؛ غارقين فى البيولوجى واللذائذ والمتع الحياتية ؛ وأعجز من أن يتصفوا بالقدرة على صون الذات، والسيطرة على المشكلات ، وبالشعور بالمنعة والاستقلال والاحتماء ، أو بالحرية والإنتاج والإسهام. لذلك تعاقب الأنا الأعلى، فى جهاز النّحن العربى، أو تفرع وتحقر.. وعلى ذلك تشعر الأنا العربى باللاقيمة، وانخفاض المكانة، وانجراف التقدير الذاتى، ونقض الاعتبار الذاتى مع مشاعر الذنب والتأثيم (قا: أعراض الاكتئاب، الوسواس القهرى).

٦ - الاختلالات فى "الذات العربية" بحسب صفوان :

سوء تشخيص للمنجرح فى اللغة والشخصية والفكر فى الأنا والمجال والنحن:

أنا لا أختلف إلا من حيث الحدة أو الدرجة ، مع تشخيصات م. صفوان لما هو نقص أو سوء فى التكيف ، وفى اللياقة والعافية ؛ ولا سيما فى كثرة الآليات (الأليات، الميكانيزمات) الرثية وغير المباشرة فى التفاعل مع المستجدات وحل الإشكالى والصراعى إن فى داخل الشخصية أم فى طرائق توفير التوازن المرن مع المجتمع والسوائية ، ثم مع الدار العالمية للفكر وثورات العلوم . لا أنا ، كصديق لصفوان ؛ ولا أى أحد آخر يحق له عدم الإصغاء إلى تحليلات صفوان الطيبية ، أو العيادية إن لم نقل التحليلنفسية والمتوقدة بخطاب الصحة النفسية . بيد أن لكل منا الحق ، بل الواجب ، فى دعوته إلى إعادة التدقيق فى تلك التحليلات التى قد يقترب بعضها من النزعة إلى إنكار الواقع ، ومن عدم رغبة الطبيب اللاوعية بإشفاء اللاسوى واللامتكيف ، ومن القصور عن رؤية التطور والتاريخ وأثر التفاعل المستمر والحي مع العالمى .

ربما نكون قد وقعنا فى مبالغة ، أو فى التحريض ، فى اللاواضح ، واللفظانى . أنا لا أقصد إلا إلى تبيان أن الرؤية العلاجية عند صفوان ليست هادئة ؛ وأنها رؤية غير صافية قد تتكافأ تماماً مع شخصيته وأحكامه التى قد تبدو غير متوترة فى حين أن قيعانها معتمدة وغير متميزة أو ذات ظلال وإحباطات غير قليل ، وقهريات متحكمة ، ورغبات غير متحققة (را : الدهايباية بين الشخصية والحقل ، الوعى والسلوك ، النظرى والتطبيقى أو الممارس) لكن ! أين هو ذلك اللاهدوء أو اللاصفاء الذى قلنا أعلاه إنه النسغ والحاكم المتحكم فى تحليلات العالم التحليلى ، الرجل الدقيق والصارم ، مصطفى الثانى (بعد مصطفى الأول : زيور) ؟ يُستطاع إعادة تحليل تحليلاته ؛ ولعله أعاد التسمية والبنية ، أو التعضية والتنظيم لبعضها . وقد لاحظت أنه يتراجع عن بعضها الآخر ؛ وفى محادثات شفوية استتجت أنى أرى فى صفوان

شخصية أخرى رقيقة لكن مقموعة مركونة . . . وعلى الرغم من هذه الاستنتاجات ، وغيرها أيضاً ، فأنا لا أتفق معه حول قولاته فى التحليل النفسى ، وفرويد ، ولاكان ، واللاكانية ؛ ثم حول قولاته التطبيقية ، ورأية السياسى ، وغرقه فى خضم اللهجة العامة الضحل والضئيل . وها هو ، أدناه وهنا ، محضر جلسات محاكمة محلل نفسى كبير حولناه ، ريثيا ، إلى صابر ، إلى مفحوص أو محلل .

٧ - انطباق التحليل النفسى على جماعات محدودة :

تردد صفوان ثم تراجعه :

الإنسان فى الفضاء الثقافى العربى ، والإسلامى أو كثرة من بلاد العالم القليلة القريبة من « الغرب » ، لن يكون ، قبل مضى زمن قادم مديد ، صالحاً أو شبه صالح لاحتضان التحليل النفسى ؛ وللعلاج بحسب طرائقه وخطاب " العلمى " (!) . ليست مرجعية صفوان ، هنا ، ثنائية الشرق والغرب ؛ أو مقولات عنصرية ، ومركزية أوروبية ، وأناوحدية عند ثقافة أو عرق ، منطقة أو دين ، تاريخ أو وعى ولا وعى . . . فمرجعيته عبارة عن إعجاب غير معتدل بالتحليل النفسى الفرويدى ، وعن تقدير مفرط مضخم لاسس ذلك المنهج أو لاعتبارها مفرطة المتانة ودقيقة صارمة ، صالحة للتعميم وخالدة .

وبحسب تشخيصاتى وتجربتى ، لقد فقد العالم كله الثقة بتلك الرؤية المنبهة ، ومن ثم القشورية ، إلى الفرويدية ورطانتها اللاكانية . والأهم هنا هو أن نفرأ من علماء النفس العرب استسلموا إلى الفرويدية ، بغير وعى حيناً ؛ وبرغبة تلميذانية قسرية ، حيناً آخر . وليس ذلك الخضوع المرغوب ، أو تلك التلميذانية الطفلية الاعتمادية ، تعبيراً عن موقف ناضج وغط من التفكير النقدانى المستقبلانى ، وبعد أن يفكر ، أكثر وأعمق ، لا يلبث صفوان أن يتردد ؛ ثم كأنه يعود إلى الصواب فيقول : إن التحليل النفسى ينطبق على النخبة عندنا ، وعلى سكان المدن ؛ ويتابع فيقول بسداد ومنعة : « . . . وذاك ما ينطبق أيضاً وبالتمام على الناس فى الغرب ، إذا لا ينطبق على الراعى ، وقليل الثقافة ، وسائر من نلقاهم هناك » لا نمكث عند هذه الصفة

النخبوية للتحليل، والعلاج، بحسب الفرويدية البائدة؛ ثم المؤيدة في اللاكانية ، عند بعض المتفعين . ولا أمكث عند هذا التعريف الناقص للتحليل النفسى ومجالاته ، وقصره على معنى أو دور أحادى كان من الطبيعى أن يُخفق إخفاقاً ذريعاً وانفجارياً.

أنا أود أن نتوجه نحو ميدان آخر إضاءته وحدها ذات اقتدار على التنبه إلى أن بعضنا يسيء إلى الحقيقة بجعله أو طفليته ، وإلى شخصيتنا التراثية أو ثقافتنا الأوروبية والتاريخية برفضه للرؤية السوية وبعجزه عن معرفة الموقع أو النمط والواقع للحضارة والتاريخ . فى عبارة أقصر ، إن الغربى ، والأمم الغربية التى قد يفنى بعضنا نفسه تعبداً لها وذوباناً فيها، لم يسبقنا لا من زمن بعيد، ولا بعمق، ولا من كل ناحية، ولا من حيث الطبيعة البشرية، ولا من حيث إمكان التفاعل مع المحيط . يظن البعض ، من المحللين النفسيين وجماعة من الكاتين، إن تصوراتنا عن النفسى والإيمانى، عن الفكر والفلسفة ، أو عن النفس والمادة والروح ، عن الحياة والوجود والقانون، هى تصورات وظواهر مختلفة عنها عند الغربى، أو أنها ملتبسة ، غير متميزة، "بدائية" (!)؛ وهكذا هكذا . . مؤسف أن يتكلم عن النفس فى الفلسفة العربية الإسلامية، وعند الفقهاء والمفكرين الآخرين، من لم يقرأ أكثر من العناوين وما تحتها، أو من لم يفهم أكثر من تلخيصات وآرائية شفوية عن الفكر العربى والفلسفة.

٨ - محصورة الجنسى ضمن سجن المحظور ثم المحرم :

فى تلخيصه لتقريظى للدكتور صفوان، يرى د. عدنان حبّ الله أنّ العامل الجنسى فى المجتمعات العربية يعوق تطبيق التحليل النفسى، ويمنع فعاليته ومردوديته. ذلك أننا بحسب الزميل حبّ الله، "ما نزال نخجل ونقاوم معالجة الاضطرابات الناجمة عن هذه الوظيفة الأساسية، ونحاول بشتى الوسائل التعتيم عليها حتى فى التعليم الابتدائى ؟ هنا رأى وهو قديم، ومثائب، ومعرفة متناقلة شعبية، والأهم هو : هل نظرية فرويد فى الجنس سديدة؟ هو مبتلع نظريات ، ولم يكن المبتدع.

٩ - العربية تفتقد أفهومات هي بمثابة أدوات إنتاجية

أو أجهزة ضرورية للتفكير والمنطق والتحليل :

أ - اللغة العربية مصابة بضعف فى الاقتدار على أن تكون صالحة من أجل التعبير عن ذاتها، وتوكيد اعتبارها الذاتى . . ففى مجال التحليل النفسى، وفى تحليل الفكر المحض وارتياذ الوقائع، لا تمتلك تلك اللغة، فى شخصيات صفوان وآرائته (مجموع آرائه المتفرقة اللامتعضية) ، مفردات أساسية لابتدية هى القوالب والأجهزة أو القوام والركائز فى التحليل النفسى . من تلك المفردات التى يقول صفوان إنها غير موجودة : أنا (الضمير المتكلم) تاء المتكلم، التعيّن ، الحصر، التحليل .

ب- يتغذى هذا التوصيف للغة العربية، عند صفوان ، مع قوله فى نقص إقتدارها على استيعاب أو اجتياق غير مصطنع للكلمات المعتمدة كمرادفات للمفردات التقنية النفسية الأساسية فى خطاب التحليلنفس، وفى كلام أخصر ، هنا تعجز اللغة العربية، ثم الفكر أو العقل العربى، عن ترجمة أمينة أولاً، بل ودقيقة للمصطلحات التحليلنفسية .

بيد أن صفوان، فى محاكمته لفعل الترجمة إلى العربية، يُثنى حتى المبالغة على طاقة هذه اللغة على أن تقدّم نصاً مترجماً قد يعلو على النص الأصيل نفسه . هنا يذكر صفوان أمثلة^(١) . ولا أظن أنه يضع ترجمته الشخصية لكتاب فرويد ، تفسير الأحلام، دون مستوى الأسلوب الأدبى الراقى الذى كتب به فرويد نفسه ذلك الكتاب بالألمانية، فصفوان هو الذى ، فى صدد آخر يقول: « أود أن أؤكد عدم مغالاة أن جميع الترجمات العربية التى أشرف عليها الدكتور زيور لا تقلّ فى دقّتها وطلاوتها عن أحسن الترجمات الموجودة فى اللغات الأخرى » .

(١) ترجمة فخرى أبو السعود لكتاب توماس هاردى كانت الترجمة الوحيدة (التي فازت على الأصل) ويذكر هنا صفوان أن محمد مصطفى بدوى (أستاذ فى أكسفورد) قد أيده فى ذلك القول . وحماس صفوان شاسع واسع للعربية ؛ ولقدرتها على الترجمة والتأدية الممتازة لآى لغة أجنبية .

١٠ - اللهجة العامية نافعة مع ألف وألف «لكن».

**علاج جزئى ريشى وعطوب لأنه غير متأسس على معاينة شمولانية
للأجراح :**

لعل صفوان لترجمة (عطيل) إلى العامية المصرية يحقق عنده رغبة بسد نقص، ويكشف عن رغبة بالشفاء من توتر أو بخفض قلق . أنا لا أحاور هنا وثائق صفوان، أو مرجعيته وأدلته . فأنا أهتم أكثر، وعلى نحو خاص، بأساليبه فى الحلّ وتحقيق العلاج أو ، فى كلمة أخصر، بمنهجيته، أو فى مجال إعادة حسن الأداء ثم التكيف الناجح فى اللغة العربية .

وأنا، هنا، من جهة أخرى، لا أسرد أدلة المحاربين للعامية ، ولا ينفعنى تدبر مسبقاتهم وتوقعاتهم . فمخاوفهم ومحاذيرهم قد لا تقف منبئة فى وجه أيديولوجية صفوان . إذ من خطاب التحليل نفس، ومن مقومات الصحة النفسية ، أن لا نتهم أو نأسف؛ وأن لا ندفع صاحب الرأى المخالف لنا إلى مشاعر بالذنب ، أو التقصير، أو التحرك بقوانين الفكر الأقل المتعصب ضد الأكثرية أو السلطة بل وضد استراتيجيا الفكر الباحث عن الفوز أو مشاعر الانتصار .

لعل الأهم هو الانتقال من الذرائع، أو الأدلة الواضحة العلنية ، التاريخية والمصرحة، إلى الدوافع اللاواعية ، والأفكار القهرية، والإيمانيات أو المسبقات الجاهزة المطمورة وغير المتميزة . والحال هذا، فإننا ننتقل من الخطاب الواعى عند صفوان إلىبنى التحتية ، والدوافع الذاتية الكامنة التى تقود نظامه فى التفكير (دا:النسق المعرفى). ومعنى ذلك الانزياح هو أن نتساءل : أين هى، ثم ما هى، العوامل الشخصية فى نظرية صفوان؟ ينفعنا جداً هنا كشف عقله الإيديولوجى . وإيمانياته المتحكمة فى منطق المعرفى، وفى محاكمته للأنساق المعرفية وللقول اللغوى الشفهى . ولا أظن أن التحليل النفسى الذى يعطى للطفولة والمعيشة والشفهيات قيمة أولى فى الحياة هو الذى قاد صفوان إلى اعتبار اللغة المحكية قيمة أولى فى تعيين اللاوعى، وفى التحكم بالسلوكات والوعى والعلائقية ثم فى الشخصية والوجود والفكر .

١١ - النظرة الثانية أو التدقيق المُعاد .

صفوان يقتل الأب (الفصحى) ويحمى الأبناء القتلة (العاميات).

أو الية حل المشكلة أو تجاوز المانع والإحباط - عند صفوان -
سلبية وانفعالية (تكسيرية ، صدامية):

اعتمد صفوان، على غرار ما يفعله الطبيب الجراح (الذى غالباً ما يكون شخصية من نوع ما ، كالجزار) ، العامية المحلية بديلاً من الفصحى لتأدية وظائف اللغة: الإبلاغ والتلقى، تكوين الوعي واللاوعي، نقل الاعتقاد والتفكير والخبرة، صقل وضبط قوالب التفكير أو عادات العقل فى الإنتاج والمحكمة والتفضيل ، توكيد الذات ، تعضية المجال والزمكان وأليات التكيف ، حَمْلُ ونَقْلُ النظر إلى الوجود والقيمة والتواصلية .

وأنا أرى، بحسب تفحصى ، أن هذا الانتقال قد يكون نقلاً من الرسمى إلى الشعبى، ومن "النخبوى" أو الواضح والعالم إلى المعيش، والمطرود المقلق معاً والمشاغب، أو من الأب الطاغى لكن الحامى والضام أو اللام إلى الأبناء المتمردين المطالبين بحق الاستقلال والتحرر، بالفوضى المحبوبة عندهم وبالشئت والتفرق والتنوع . بيد أنى، بعد هذا التشخيص للحالة، قد لا أرى أن استيعاب الصراعى أو التجاذبى واللامتكيف لا يكون إلا بقتل الأب ، وعدم ترشيد الأولاد القاصرين ولربما العاجزين عن تحمل المسئولية حيال الغد والنحن واللغة . . فى أوالية اجتياز العقبات فى شخصية أو فكر أو سلوك صفوان، تحين للعقبة ؛ وأنا أرى أن ذلك التحطيم لا يحقق التكيف الإيجابى والاتزانة أو النضج والسوائية بقدر ما هو يرتد على الذاتى فيغدو تدميراً ذاتياً ثم عنفاً قاتلاً أو تقطيعياً للمجال والعلائقية والنحناوية .

وأنا قد لا أقول إن اعتماد العاميات يُعدّ تراجعاً إلى الطفلى والمطبق، المغبون والحقى . غير أنى أقول إن ذلك الحل للإحباط لا يرقى إلى مستوى الحلول المباشرة والعقلانية، الواقعية والشمولانية، الدائمة والمتناقضة والجذرانية . إنه حل يقع خارج

موقعه، وخارج الفلسفة الاجتماعية والسياسية (والأخلاقية) ، وخارج الرشدانية التى يرسمها المجتمع لتوكيد ذاته . أخيراً لقد التقطنا أواليات غير مباشرة كثيرة فى نقد صفوان للفصحى ، ولحملة فكرها ورؤيتها للوجود؛ وفى ذلك كان الناقد، وإذ هو يُنتج ويتحرك تبعاً للأساليب الحيلية الناقصة، الالتفافية والسلبية، لا يوضح أو يصقل نظرية أو مقولات جديدة أو مطورة وإسهامية وقادرة على التفسير كما التغيير . ولعله كان من الأجدى أن يطرح صاحب التشخيص والعلاج - أمام الجميع - منطقه فى العمل ، وأجهزة التفكير المعتمدة والمذهب أو الهيكل بل الدرع النظرى فى محاكمة العائلة الرمزية الجماعية (التراث ، أى الأب والأم والأبناء).

١٢ - التلاقى بين صفوان فى تعصبه للعامة والمتعصب للأقلية أو للحوادث الفرعية فى المجتمع وفى الفكر .

قوانين تحكم الأقليات وتفسر التعصب عند الأقلية لغوياً وغير لغوى: الأواليات الحيلية أو الدفاعية للتكيف والتوكيد الذاتى عند الأقليات وفى منطق الأيديولوجيات واللاهوائيات :

قد لا يشعر ابن الاقليات، الأقوامية كما اللغوية أو الدينية، بالاحتماء والاطمئنان فى فضاء الأكثرية . فذلك الابن يفتقد إلى الحنان، ويشعر بالحرمان العاطفى؛ إذ هو يعيش، بحسب تصورات، ضمن عائلة مفككة ، وفى كنف أم بديلة، وفى حقل غير متوازن العلاقات بين الأب والأم، وبين الأخوة أنفسهم، أو فيما بين الوحدات الفرعية . ويشعر، بعد أيضاً ، بحسد الأخ الأكبر، وأيضاً بالغيرة من موقع أو سلطة هذا الأخ الكبير المتسلط المحتكر .

(...) وأيديولوجيا اللغة العامة ملجأ وهمى ، أو فعلى . وذاك الحل هو تعويض، وتغطية وهروب، وانفصال ، وانسحاب ، وإبدال، ونكران للواقع، وتكوين عكسى، وحل يائس جانح، غير ناضج ، انتحارى وناحر (را: حلّ الدجاجة لمشكلة الجوع) والتعصب لتلك الإيديولوجيا اللغوية العامة هو نفسه التعصب المعروف فى الأيديولوجيات بعامة، وعند الأقليات ، وفى القوميات .

أخيراً، وعلى سبيل الخلاصة، إن ما يقال عن الرغبة، عند البعض، بالعامية معروف وكثير، تجريحي واتهامي، تأنيبي وتأثيمي، دفاعي وتقريظي. لا سبيل إلى تكراره، ولا اقتدار لنا على ذلك بسبب أنه، عند نهاية التحليل، يؤدي إلى السياسى. لذا، فإن الأهم لنا هو، هنا والآن، أن لا نقع فى حل يقول بالتحتمية اللغوية، وباعتبار اللغة عاملاً حاسماً مفسراً لكل شىء، ولكل شىء فى كل شىء، ولكل معنى فى كل معنى لا تؤخذ العامية من دون الفصحى؛ ولا ضد ذلك سليم. هما معاً: فى بنية، فى وحدة، فى كل أجمعى وجميعى. وتلك الثنائية صراعية، وجدانية، تمزيقية للوعى، خاضعة لقوانين حل المتكافئات أو المتناقضات المتساوية.. ومرة أخرى، إن حلول صفوان مترددة، متوقدة بالمشاعر (منها التأنيب الذاتى)، مأزومة ومتمازقة، ومكشاف لعدائية مزاحة ومكبوتة. قد تكون نواياه سوية لكن طيب القلب والسذاجة قد يؤديان، بغير تعمد، إلى اللاأخلاقي والفاشل، وإلى الطريق التى لا تصد ولا ترد، أى التى لا تمنع السائر عن المتابعة، ولا ترده إلى دياره.

١٣- مقولة أن فعل "كان" نقص آخر أو فجوة ومأساة فى اللغة.

تعبير الجملة الاسمية لا يحتاج للرابطة المنطقية ويستوعبها.

فلسفة عربية انطلاقاً من فعل الكينونة أو الكائن وفعل الوجودية.

أصالة فلسفة "كان" (الفلسفة الكانوية) وفلسفة الكائن فى الفكر العربى.

تمر فى «تقريرات» صفوان الطيبة، وطروحاته الأشفائية، فكرة أخرى هى أيضاً، كسابقاتها، صراعية أو مزدوجة القيمة. فقد شخّص رضى مفادها أن فعل «كان» - فعل الكائنية والكينونة والكيّنة - فعل غير دقيق وغير نافع فى اللغة العربية. وأنا أقول إنه موجود؛ وقال أصحاب المعاجم القديمة: إنه فعل كان موجوداً، ثم أميت وبعضهم قال إنه أسقط. وبينى صفوان على تقريره القطعى، وبغير الانفتاح الناقص أو المفقود.

من المترتبات الناجمات عن ذلك، افترض الكثيرون أن الفكر العربى ليس قادراً على الإنتاج فى المنطق، أو أنه غير صالح للتعبير عن المنطق، ولاستيعاب النظر الفلسفى وتمثله . . وأوصلتنا الافتراضات، القائمة على ذلك التصور للعربية، إلى مقولات وأظنونات؛ من نحو : العربى لا يستطيع فهم أو صياغة النظرية الغربية أو المسيحية فى الأونطولوجيا (الأيسيات ، الإليات أو الإنيات ، علم الوجود، الوجوديات ، علم الكائن، الكائنات، إلخ . .).

فى محادثاتى مع صفوان، فى الفصل الماضى من هذا العام، بدا له تردده ، بل وحتى تراجعته أحياناً وهذا، إن لم أقل إنه القى المسئولية على عاتق آخرين . وأثناء جلسة نقاش عام، فى قسم علم النفس (الفرع الأول)، وجه إلى الزميلين وليد خورى وكمال بكداش دعوة للرد على موقف صفوان من فعل الكينونة فى العربية. لقد أنكرا على الصمت الاستنكارى والمحابى .

كان ردى أن تلك قضية صارت عتيقة، مَرَمِيَّة . وأنا فى قسم الفلسفة، ومنذ السبعينيات ، تجاوزناها. وفعلنا ذلك فى الجامعة اليسوعية؛ هى نفسها. وأسكتنا الخطاب غير تاريخى فى دراسة اللغة. وقلت ، سريعاً وبغير نفور أو استياء ، وإننا قد عدنا إلى استعمال كلمة الليس بمعنى العدم، والأيس (الأيسيات) بمعنى الوجود (الأونطولوجيا) واستطعنا شقيلة المعادلة؛ فنحن اليوم نستطيع تأكيد أن اللغة التى تحوى جملةً أسمية أقدر على التعبير والتوضيح والتلقى، وأقدر فى مجال المنطق الحديث، وفى المعادلات، وفى . . . وفى . . والأمر ليس سراً ، أو مجهولاً، إن عدنا لنقول : إن فلسفة الكائن ، أو فلسفة الوجود، والمقال فى الوجود، مستقاة من أثلوث الخطاب اليونانى العربى اللاتينى ومعنى الفعل وجد مزدوج: إنه كما يريدون أن يكون، أى هو قد يعنى اللقيا (وجدت شيئاً : لقيته) لكنه يعنى أيضاً معنى الوجودية ، والكينونية، والخلق (أوجد الله الكائنات : خلقها؛ جعلها موجودة). ربما كان يصدق اعتبارهم، هم «أهل العاميات» ، أن فعل كان لا يستطيع أن يكون معبراً عن جملة شكسبير: "نكون أو لا نكون تلك هى المشكلة" لكن وبعد تطور معنى كلمة كان ومشتقاتها، لا يجوز التكرار لمقولة أن اللفظة تعيش وتنمو فهى

تنغرس فى المجتمع والتاريخ . وقلت لصفوان ما سبق أن كررته مراراً: إن فعل كان إن اختفى فى الزمن الحاضر، فهو يعود للفاعلية والظهور فى الزمن المضارع (المستقبل والراهن) فنحن نقول : قد يكون الأمر خطيراً، سوف يكون للفعل أكثر من معنى أو مستوى، كنت صديقاً لصفوان، وأنا لن أكون له خصماً.. كان الله ولم تكن الأشياء .. كان التحليل نفس إبهارياً.. كُنْ مع الحقيقة ولا تبالى. إذا قال الله لشيء كُنْ فيكون. مصطفى يكون ومصطفى لا يكون (زيور ثم صفوان) كان الله منذ الأزل. كن ابن من شئت واكتسب أدباً.. كيفيك فخراً أن تكون..

١٣- نقد المجتمع والسياسة بحسب التحليل النفسى عند صفوان :

نجح العاملون فى ميدان التحليل النفسى، وعلم النفس الاجتماعى العيادى، فى اختراق طبقات مترازحة، أو رزوحات ثقافية متراكمة فوق بعضها البعض.. ولعل ذلك النجاح فى هتك ذلك حقق فى مجتمعاتنا نقداً دقيقاً للعصمة والأسطرة للمأسية والقدسة، للمنمطات واللاوعى الثقافى .. وقد قدم صفوان حصة فى ذلك العمل النقدى؛ وتبقى جزيلة الدقة والمردودية تحليلاته للخطاب السياسى العربى. هنا أنا أثنى وأثنى على تشخيصه للبارانويائى، للهادئ وهوس العظمة، فى ذلك الخطاب الذى، بحسب تسميتى، يبدو عصابياً فى مختلف وجوهه. إنه فى تحليلاتى، مهووس بالاختلاقى؛ وهو نفاعى، زورى، استنفاخى، بجانب للعقل بل ومن ميدان هو اللاعقل، وضد العقل.. (را: زيور، قطاع البطولة والنجسية فى الذات العربية؛ علم البطولة الشعبية والسياسة والروحية فى النحناوية العربية).

قد ينفعنا المكث لحظة كى نتدبر نقطة، أو اثنتين، عند صفوان فى توصيفاته لنشاط المعلم مصطفى زيور. فقد نكتشف صفوان من خلال تفضيلاته، ذاك أن أعجاب الشخصية بهذه القيم أو تلك يكشف عن نمط الحياة والتفكير عندها.

١٤ - الالتزام بالوطن، المعرفة من الداخل بأمراضه الفكرية والجراحاته . المقاومة اللاواعية للتغير الشمولاني :

يكتب مصطفى صفوان فى كلمة بعنوان مصطفى زيور - المعلم : " وإنى لآحى فى الآن مثلاً منقطع النظر للوفاء للوطن" . وهذا لسان حالى ، إنه لسان نفسى ثم أنا أزيد ، فأقول : هذا كلام يكون دقيقاً بقدر ما يكون كلاماً ناجحاً فى التعبير عن الوعى والسلوك ، عن الكينونة والنحن ، عن الانقهارات والقسريات فى المجتمع والفكر . كان زيور قد توحد (تماهى ، تعين) فى الوطن وفى اللغة . ورأى أن اللغة تكون المسكن والذات ، الأم والتراث ، اللاوعى والرضات والصدمات ، الرغبة بالشفاء وحاجة الإنسان للاحتماء والتوكيد الذاتى والإنجاز . أما صفوان فهو ، وبحسب عندائى القديمة والجديدة ، لم يتغلب على ما هو عنده رغبة لا واعية ، أو ضبابية وغير متميزة ، بتطور الوطن ، وتغير السلوك والوعى داخل المجتمع العربى .

١٥ - صمد زيور وحده . وهرب من العواصف صفوان وبقيت التلاميذ :

يقول صفوان : « ولكن العواصف التى اجتاحت بلدنا بما ترتب عليها من القطيعة بيننا وبين كل نتاج فكرى يُعتد به فى الخارج فاقت احتمالنا جميعاً (يقصد : تلاميذ زيور) . إلا أن الدكتور مصطفى زيور : فقد صمد وحده لها . . وقال أيضاً تلامذة الدكتور زيور «لو مكثوا بأرض الوطن لتكونت منهم مدرسة لا تقل خصوبة وابتكاراً عن مثيلاتها فى أى بلد آخر» .

انتهى صفوان غريقاً فى حضارة الأقوى . ذاب فيها ، تعين أو تماهى معها . قتل نفسه فيها ، قتلاً رحيماً ، وبالتذاذ سادى يعرفه الانتحار الفكرى وحده . لقد حصل على تكيف غير جذرى ، سىء .